هجوم القبارصة على الاسكندرية

٧٦٧هـ (= ١٣٦٥م)

من نصوص جديدة للنويرى

للدكتور حسن حبشى

أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب . جامعة عين شمس

تعرضت الاسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ (= ١٣٦٥م) لغزو صلبى كان بمثابة الهزة العنيفة للحكومة المملوكية مما حملها على الاهتمام بها بجملها — عن حق — خط الدفاع الأول عن البلاد وإعطائها مزيداً من الصلاحيات الإدارية تمثلت فى أن أصبحت لأول مرة نيابةً بعد أن كانت ولاية ، وأصبح نائبها يلقب « بملك الأمراء » . ومع ضخامة هذا الحادث الذى سماه معاصروه بالكائنة العظمى[1] من حيث الاستعدادات الحربية التى اتخذت من أجله على الصعيد الأوربى ومن حيث الخسائر الضخمة التى نزلت بالاسكندرية وأهلها إلا أنه لم يجد من يعنى بالكتابة عنه — فى إفاضة وإسهاب — من المؤرخين المسلمين سوى واحد فقط هو محمد بن قاسم بن محمد النويرى المالقى الاسكندرى من رجال القرن الثامن الهجرى (= الرابع عشر الميلادى) ، فقد وضع كتابه المسمى « بالإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية » فى سنة سبع وستين وسبعمائة وعودتها إلى حالتها المرضية » ؛ ومن ثم فهو المصدر العربى الوحيد الذى تفرد بذكر هجوم القبارصة على هذا الثغر ، هذا بالإضافة إلى أن مؤلفه كان شاهد عيان لهذا الحادث الكبير الذى استعد له الغرب استعداداً كبيراً ظل معظمه طى الكتمان — حتى عن بعض الذين شاركوا فيه — وكان له صدى هائل ونتائج خطيرة ما بين محلية وخارجية .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ٤/٢٣٩ .

وقد تعددت الإشارات — نسبياً — فى كثير من المصادر العربية والوثائق إلى الاستعدادات والاتصالات السياسية التى أجراها ملك قبرص بطرس اللوزينيانى صاحب مشروع الغزو ومنفذه ، كما أن هناك ملحمة شعرية فى الأدب الأوربى عنوانها La Prise de Alexandrie.

وقد تناول « الإلمام » الوقعة بالتفصيل ، لكنها مع هذا التفصيل تكاد تضيع بين الاستطرادات الجمة التى تطغى فى كثير من الأحيان على موضوع الكتاب ، ويشير أحد معاصريه(١) إلى ذلك فيقول « إنما أطاله باستطراده من شىء إلى شىء ، فإنه بدأ بفتح الاسكندرية فأطال فى ذلك وساق أخبارها ، فكان خبر الوقعة فى جانب ما ذكر كالشامة » ، ومع ما تضمنته هذه الاستطرادات — فى كثير من الأحيان — من معلومات تاريخية ونكات أدبية — إلا أنها لا ترتبط بالهجوم ، ومن ثم فهى اعتراضات مطولة تجور على المتن وتطغى على أحداث المعركة حتى ليكاد المرء ينسى الوقعة وهو يطالع الإلمام ، ولقد شعر النويرى بذلك فكان يختم كل استطراد بقوله « نعود » أو « نعود لما كنا فيه » وأشباههما .

ولقد جرى الهجوم على الاسكندرية يوم ٢٣ محرم ٧٦٧هـ (= ١٠(٢) أكتوبر ١٣٦٥م) فى السنة الثالثة من حكم السلطان شعبان بن حسين ، وإذا كان هجوم القبارصة مفاجأة لمصر المملوكية فإنه لم يكن كذلك بالنسبة لبعض القوى الأوربية وللبابوية ذاتها ، بل الثابت من استقراء الأحداث التاريخية أنه قد مهدت له دعايات معينة كتلك التى تصاحب كل تجريدة صليبية ، وسبقته اتصالات دبلوماسية على مستويات عالية وتحركات عدوانية على بعض مدن آسيا الصغرى ، حتى إذا نجحت كل واحدة فى ميدانها كان الهجوم على الاسكندرية ذروة الجهد ، رغم أن هذا الهجوم لم يستمر أكثر من ثمانية أيام ، ولكن كانت له آثاره المدمرة فى التخريب وقتل العدد الكبير من أهلها(٣) ووقوع البعض فى الأسر .

لم يكن سقوط عكا فى أيدى المصريين والقضاء على القوة الصليبية فى الشام

---

(١) ابن حجر : شرحه .

(٢) رجعنا فى هذه التواريخ العربيـة للجداول التى وضعها اللواء محمد مختار فى كتابه : التوفيقات الإلهامية ، طبعة بولاق ١٣١١ هـ .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ، ٢٩/١١ .

خاتمة للصراع الذى بدأه البابا إربان الثانى عام ١٠٩٥ فى خطبته[١] فى كليرمونت بفرنسا ، بل راح يظهر فى مسوح شتى لم تكن الحرب إلا إحدى مظاهرها ، ولقد امتاز هذا القرن فى الغرب بظهور اتجاه جديد إهتم — أكثر ما اهتم — بإنشاء المؤسسات الدينية الحربية التى جعلت — ظاهرياً — غرضها استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين[٢] ، ولقد وجدت القوى اللاتينية ملاذها فى قبرص التى قام بها البيت اللوزنيانى ، وأصبح كثير من رجالات القصر وهذا البيت يلقبون بمارشالات بيت المقدس وصنجالاتها[٣]، وليس لهذه الألقاب من دلالة إلا الارتباط الشديد بين حكام جزيرة قبرص وبين فكرة استرداد الأحرام المسيحية المقدسة ، ومن ثم لم يكن بطرس اللوزنيانى بدعاً فى هذا المجال ، ولكنه كان أول وآخر رائد من حكامها وضع الفكرة الصليبية موضع التنفيذ ؛ والواقع أن توليه العرش سنة ١٣٥٩ م كان إشارة الانطلاق فى احتضان هذه الجزيرة الفعلى للعدوان الغربى على الشرق الإسلامى ، كما يعتبر عهده فاتحة التوسع الحربى ، وقد غذى فيه هذه الروح نشأة أحاطتها الأساطير الدينية وقوتها الخيالات والرؤى والأحلام[٤] ، يضاف إلى هذا أن اتصالاته بفيليب دى ميزيير[٥] كان لها أثر قوى فى بث الكراهية فى نفسه ضد الجماعات الإسلامية

(١) R. Pernoud : The Crusades (Lond., 1962), pp. 23-26.

(٢) كان من بين هذه التنظيمات الدينية الحربية جماعة "Escon d'or" التى أنشأها لويس البربونى ، ومنظمة Annonciades على يد صاحب سافوى ، ومنظمة « النجمة » فى فرنسا انظر فى ذلك Leopold Pannier : La noble maison de Saint Ouen, p. 90; Marquis de Loray : Jean de Vienne, Amiral de France, p. 36.

(٣) نستدل على هذا من وثيقة أوردها Mas Latrie : Hist. de Chypre II, p. 178. جاءت فيها هذه العبارة "sensecalus regni Jeresolimitani".

(٤) ولقد تجسمت فيما بعد فى إنشائه جماعة إخوان السيف التى سماها البعض « بفرسان ملوك قبرص » ، وانخرط فيها كثير من الجنسيات الأوربية ، وكان هدفها فى بداية الأمر استخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، لكنها انتهت بقصر اهتمامها على الدفاع عن قبرص ذاتها فى وقت لم تحد قبرص فيه من يذود عنها أنظر Machaut : La Prise d'Alexandrie, (Genève, 1877), ll. 369 et seq; Jorga : Philippe de Mezléres (Paris, 1896), p. 83.

(٥) ولد فيليب دى ميزيير فى إقليم بيكاردى بفرنسا عام ١٣٢٦ وتعلم فى أميين ، ثم اتصل ببلاط أندريه ملك نابلى ، وظل به حتى سنة ١٣٤٦ رحل بعدها إلى كثير من البلاد ومن =

نتيجة اتصاله المباشر ببطرس توماس بطرك القسطنطينية . لذلك كان اهتمام بطرس الأول متركزاً على ضرب المعاقل الإسلامية أنى وجدت ، وساعدته الظروف فى أرمينيا على وجه الخصوص فى أن يجد لقدمه موضعاً بها ، حيث بعث إليه ملكها ليون الخامس يستنجد به فى يناير ١٣٦٠[1] ضد الخطرين العثمانى والمملوكى ، حتى لقد « جعل مدينة جورهيجوس[2] وأهلها فى حمايته » فوافق ذلك هوى فى نفس الملك القبرصى إذ « كان متلهفاً على تملك أرض فى تركيا[3] » ، ومن ثم أصبحت لبيت لوزنيان ركيزة حربية تتاخم القوى الإسلامية التى انزعج بعض أمرائها فكونوا من بينهم تحالفاً للمقاومة وإن لم يتمخض هذا التحالف عن نتائج عملية حاسمة ، ولكنه دفع بالملك القبرصى لتكتيل القوى الغربية — حتى المتصارعة منها فيما بينها — فبادرت إلى إمداده بالسفن الحربية والرجال والعتاد ، وجعل لنفسه القيادة العامة وهاجم «أنطالية»[4] ونصب عليها فارساً مولداً إسمه « جيمس دى نورس » ثم أعلن متابعته للزحف على « العلايا » مما انزعج له حاكمها فما لبث أن أرسل رسلا من قبله إلى الملك بطرس « يلتمس منه مودته ، وتعهد له بدفع قدر معين من المال كل سنة ، وأن يرفع راياته

= بينها بعض بلاد الشرق ، وحج إلى بيت المقدس حيث انبثقت لديه فكرة تكوين جيش خلاص نصرانى لاسترداد الأحرام المقدسة ، ثم عاد فمر بقبرص وتعرف إلى الملك بطرس الذى ما كاد يعتلى العرش عام ١٣٥٩ حتى اتخذه مستشاراً له وصحبه فى زياراته للملوك وأمراء أوربا ، قصد المعاونة فى تنفيذ مشروعه الصليبى ، أنظر Jorga : op. cit., Ch. VII ، هذا وقد نشر المرحوم الدكتور عبد الحميد حمدى مشروع ميزيير الصليبى فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية.

(١) فيما يتعلق بالتاريخ راجع Dawkins (in) Makhairas, Recital concerning the Sweet Land of Cyprus, (Oxford, 1932), Vol. II, 104, note I.

(٢) Machaut : op. cit., 20 أما فيما يتعلق باسمها فى مختلف المصادر وموقعها الجغرافى فراجع Mas-Latrie : Hist. de Chypre II, 75 note I حيث ذكرت فى النص اللاتينى الذى أورده باسم Culcum .

(٣) Makhairas : op. cit., I, 101.

(٤) كانت أنطالية والعلايا من أهم الموانى فى هذه الناحية الشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد زارها الرحالة المسلم ابن بطوطة قبل ثلاثين سنة من هذا الغزو القبرصى وأسهب فى وصفهما ، كما أشار ياقوت : معجم البلدان ١/٣٨٨ إلى أنطاليا فذكر فى شأنها أنها « حصن واسع الرستاق كثير الأهل » وعنه أخذ هذا الوصف ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ١/١٢٥ .

وأعلامه فى مدينته »[١] فسر الملك من هذا الاستسلام الذى لم ترق فيه نقطة دم ، وكان ذلك فى الثامن من سبتمبر ١٣٦١ ، وكان هذا الاستسلام بداية انفراط[٢] عقد التحالف الإسلامى ضد الملك اللوزنيانى .

بهذه الوسيلة وبهذه النتائج التى تمخضت عنها هذه الحركة من جانب بطرس أدرك الأخير مواضع الضعف فى الجبهة الشرقية الإسلامية ، كما أن هذه الانتصارات التى اكتسبها — وإن لم تكن له يد فى بعضها — دفعته لتوجيه اهتمامه نحو ضرب المواقع الإسلامية الكبرى بغية استخلاص بيت المقدس واحتلال بعض أراضيها ، والسيطرة على معابر التجارة الشرقية ومسالكها .

إلا أن الأمور لم تمض كما يشتهى ، فما لبث أن تحركت بعض هذه القوى الإسلامية لرفع النير القبرصى ، وذهبت إلى أبعد من ذلك حيث أخذت تعد العدة لمهاجمة قبرص ذاتها فى الوقت الذى كان ملكها فيه فى الغرب يستعديه لمهاجمة المسلمين ، إلا أن القوة الإسلامية البحرية المغيرة اضطرت للارتداد وفر قائدها إلى طرابلس الشام حيث حماه أميرها منكلى بغا الشمسى الذى يسميه ماخيراس باسم « ملك بخنا »[٣] .

ترى هل كانت فى ذهن بطرس فكرة واضحة منذ البداية عن الهدف النهائى من نزعته الصليبية ؟ أعنى هل كان يفكر فى مهاجمة مصر وثغرها الإسكندرية قبل نزول قواته على بعض بلاد آسيا الصغرى مابين أرمينية وإسلامية ؟

---

(١) Makhairas : op. cit., I, 124.

(٢) تفسير هذا الاستسلام عند:
Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 328
هو خوف هذه الإمارات من ضياع استقلالها على يد قرمان ، أنظر
E.I. art Kirman; Gibbons : pp. 165-7, 187-90, 289-90.

(٣) Cf. Makhairas : op. cit. I, 159; II, 159, note 2
وقد مات منكلى بغا الشمسى هذا سنة ٧٧٤ ، أنظر ابن حجر : أنباء الغمر ، وفيات ٧٧٤هـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١/١٢٤ـ١٢٥ حيث ذكر ولايته لطرابلس الشام ، كذلك ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٦/٢٣٦ـ٢٣٧ ، أما الدرر الكامنة ٤/٩٩٨ فلم يورد خبر ولايته لها فى ترجمته هناك .

الواقع أنه ليس بين أيدينا ما يشير صراحة أوتلميحاً إلى مثل هذه الفكرة قبل استنجاد ليو الخامس به ، ولعله رأى فى ضعف الإمارات الإسلامية وتنازعها فيما بينها وعدم وجود تحالف يجمعها ضد المعتدى ماحرك فيه هذه النزعة الدينية للتفكير فى مواجهة مصر مواجهة حربية .

يؤيد هذا الرأى الذى نقترحه أن الملك بطرس لم يكد يفرغ من آسيا الصغرى حتى بادر للشخوص إلى أوربا يعرض « حربا صليبية » لم يحدد لها هدفاً صريحاً ، ولسنا نجد فى الوثائق اللاتينية التى جمعها «ماس لاترى»(١) الخاصة بالملك بطرس فى سنة ١٣٦٤ مايشير إلى « الإسكندرية » ، بل إن التصريح بوجهة هذه الحملة قد بقى سراً مكتوماً حتى عمن اشتركوا فيها ــ ومن بينهم البنادقة والجماعات الإيطالية على وجه الخصوص ، ولم يعرفوا حقيقة تلك الوجهة إلا يوم قاربوها ، بيد أنه ليس معنى ذلك أن تحديد وجهة الحملة لم يتم إلا بعد خروجها من قبرص وكشف الخبر عن طيتها لرجاله ، ولكن الأرجح أنه اندفع إلى الغرب بعد خضوع العلايا وأنطاليا محاولا اغتنام هذه الفرصة لتحريكه عدوانياً وتأليبه على الشرق الإسلامى .

* * *

هنا بدأت الخطوة الثانية فى سلسلة التحركات التمهيدية التى أدت فى النهاية إلى مهاجمة الإسكندرية وهى الاتصالات الشخصية الدبلوماسية التى قام بها ــ منذ أكتوبر ١٣٦٢ ــ الملك بطرس بالقوى المسيحية الغربية وهى :

١ ــ البابوية .

٢ ــ البندقية وجنوة .

٣ ــ الممالك الأوربية (وعلى رأسها انجلترا وفرنسا) .

٤ ــ جماعة الاسبتارية .

ولما كان بطرس هو وحده الذى قام بهذه الاتصالات فلم يدخل فى الحسبان توزيع تلك الاتصالات من حيث الأهمية الحربية بل إن الوضع الجغرافى هو الذى

---

(١) Cf. Mas-Latrie : op. cit., loc. cit.

كان على عليه الانصال بواحدة منها قبل الأخرى ، وقد استغرقت تلك الاتصالات منه ثلاث سنوات امتدت من ١٤ أكتوبر ١٢٦٢[1] .

وكان أول من اتصل به جماعة الفرسان الاسبتارية فى رودس وكانوا بقيادة رئيسهم الأخ الأكبر « روجردى بان » وكان ذلك على يد جماعة فى أنطالية كتب إليهم الملك رسالة يطلب إليهم فيها الشخوص على جناح السرعة إلى ردوس ، فكان ما أراد ، وما كاد هؤلاء القواد يصلون اليه حتى بادر بالسفر الى البلاط البابوى فى « أفينيون » حيث كان البابا إربان الخامس الذى أصلح مابين الملك وبين هيج اللوزينانى تحقيقاً لشق من سياسته القائمة على تقوية البابوية فى إيطاليا ، وإقرار السلام بين الجماعات الغربية وإحياء الحركة الصليبية[2] مما كان له صدى فى قول أحدهم حين اعتلائه العرش البابوى « لقد أصبح اليوم لنا بابا » Modo habemus Papam[3]، ولقى الملك بطرس استجابة طيبة من البابا الذى أراد أن يكون له ما كان لسميه إربان الثانى منذ أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

كذلك وصل بطرس فى ديسمبر ١٣٦٢ إلى البندقية إدراكا منه لما تستطيع أداءه هذه الجمهورية لصالح الفكرة الصليبية ومساعدتها مادياً ، ورحب به دوجها « لورانت شلزى » الذى استمع إلى تصويره لحالة المسيحيين فى الشرق ، كما لم تفته الإشارة إلى خطر ازدياد القوة الإسلامية وتهديدها للمصالح الغربية فى ميدانى التجارة والدين معاً على السواء ، وقد وعده الدوج بقيام دوقيته بمساعدته بالسفن وبعض الرجال ، وكان هذا غاية ما يرجوه بطرس من نجاح لمسعاه لدى جمهورية البندقية التى تضع مصالحها المادية فوق الصالح المسيحى والتى يرى أهلها فى أنفسهم « بنادقة أولا ثم مسيحيين بعدئذ » ، والتى دعتها رعاية هذا الصالح الشخصى إلى الإصرار على أن تكون الاتفاقية بين الطرفين سراً حتى لا تبلغ مسامع قوى تحرص البندقية

---

(١) تحديد هذا التاريخ بناء على ماورد فى Mas-Latrie : op. cit., II, p. 239, note 1, d'après Strambaldi حيث بين صراحة خطأ خروج الملك قبل هذا الوقت .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ .

(٣) Duchesne : Hist. de Cardinaux français, I, p. 406.

على مراعاتها حفظاً منها على امتيازاتها التجارية والاستيطانية والقضائية فيها ، لكن هل رسمت وجهة الحملة المزمع قيامها تحت قيادة الملك القبرصى ؟ وهل نص الحديث بينهما على « الإسكندرية » ؟ الأرجح أنه اكتفى بأن تكون التجريدة « صليبية »، ولعل الجانب المصرى لم يبلغه مثل هذا الإتفاق ، بدليل ما يسوقه النويرى[١] من أنه حين هاجم القبارصة عمد جنفرا إلى التوسل بالبنادقة واصطناعهم فى حراسة البضائع التى خيف عليها فأرسلها للداخل صحبتهم حراساً عليها ، مما يدل على أنه لم يكن يخامره شك من ناحية البندقية وقناصلها .

* * *

تابع بطرس سيره بعدئذ نحو لمبارديا وإيطاليا الجنوبية حيث صادف ترحيباً به وبفكرته من جميع من اتصل بهم : أمراء وأدواقاً وحكاماً ، ووصلوه بكثير من الهدايا والخيول ، ولم يعدم جماعة من الفرسان المتدينين الذين انضموا إليه وصحبوه فى تجواله حتى بلغ جنوه حيث رحب به دوجها « سيمون بوكانيجرا » الذى ما لبث أن قتله أشراف الإمارة بالسم ، فكان هذا الحادث باعثاً لليأس فى قلب بطرس الأول ، لكنه عاد يطرق أبواب جنوة حين أراد أهلها تجديد الامتيازات التى منحهم إياها من قبل هنرى الأول منذ أكثر من قرن من الزمان ثم العودة إلى مثل هذه المحاولة فى العشرينات من القرن الرابع عشر[٢] .

* * *

اتصل بطرس بفرنسا وملكها جان الثانى المعروف بنزعته الدينية القوية حتى كان أحد اثنين تناولا الصليب لهذه الحرب من يد البابا إربان الخامس ، وليس من شك فى أن بطرس كان يحدوه الأمل فى أن تنضم لمشروعه مثل هذه الشخصية القوية النفوذ فى بلدها ، الوثيقة الصداقة برجال الدين، المؤاخية فى السلاح لكثيرين من أبرز الفرسان المصاميد ، يضاف إلى هذا أنه كان يتحرق شوقاً لمحاربة المسلمين فى الأندلس، إرثاً ورثه عن أبيه وعهداً قطعه على نفسه ، يضاف الى هذا ما ترامى إلى سمع الملك القبرصى من إعجاب ملك فرنسا به لما حازه من نصر فى العلايا .

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٥٢٤ .

(٢) Mas-Latrie : Arch. de l'Orient Latin, II, p. 173-4.

التقى بطرس بجان الثانى فى بلاط أڤنيون حيث رحب الملك الفرنسى به ودعاه للجلوس الى جواره على المائدة فأبى بطرس احتراماً لمكانة ملك فرنسا وقال له: «أيها السيدالعظيم ، لايحق لى أن أجلس إلى جوارك فأنت أعظم أمراء المسيحية »[١]، ولعل هذا ما يفسر إشارة النويرىعن بطرس فى قوله عنه «إنه كان أذل ملوك النصرانية» وهو قول ردده عنه مؤرخ حديث فى القرن العشرين صور مبلغ احتقار الغرب له وازدراءه بشأنه[٢] .

على أن الغريب هنا أن البابا أراد أن يجعل من حملة لوزنيان حملة بابوية تتصرف فيها كيف شاءت ، ومن ثم وكل قيادتها إلى ملك فرنسا دون بطرس ، مما يؤيد رأى القائلين بتفاهة شأن الملك القبرصى ، كما جعل « تاليران بريجورد » نائبه الرسولى فيها ، وطبيعى أن يرحب الملك الفرنسى بهذه الفرصة ، فخصص جميع الأموال التى كانت قد جمعت من قبل لتخليص الأماكن المقدسة وقفاً على هذه الحملة ، بالإضافة إلى الهبات والمبالغ التى وعد بها من جيبه الخاص ، وكذلك نصف دخول كنائس فرنسا ، على أن يوكل التصرف فىهذه الأموال إلى أربعة من كبار الأساقفة يختار الملك الفرنسى منهم اثنين ويختار البابا الإثنين الآخرين .

وقام البابا من جهته بإنفاذ الرسائل إلى ملوك وأمراء النصرانية فى الغرب يحثهم على المساهمة فىهذه التجريدة الصليبية التى يظهر جلياً أنها كانت متجهة ضد « الترك » ، ولم تجر فيها الإشارة إلى مصر ، وحدد أول مارس١٣٦٥ ليكون موعداً لنهوضها . ويلاحظ أن اسم ملك قبرص لم يرد قط فيمن دخلوا فى نطاق أسماء زعماء هذه الحملة ، فهل كان ذلك عدم اكتراث بشأنه ؟ وهل كان ذلك يرضيه وهو الذى تكبد ما تكبد فى سبيل الحصول على نجدات ومساعدات من الغرب ؟

على أنه يظهر أن هناك ثم تدخلا من جانب فيليب دى مزيير لدى البابا لتأييد موقف بطرس الأول الذى ما لبث أن رحل يطلب مساعدة الأمراء الأوربيين المختلفين .

---

(١) Chroniques de Pays-Bas et de France, (ed. de Smet), II, p. 201.

(٢) Lorga : Philippe de Mezières, p. 283, l. 10.

ويخيل إلينا أنه رحل وفى نفسه شىء من الألم لإيكال هذه الحملة لسواه دونه ، وإلا فقد كان يكفيه كتابة البابا رسائله إلى مختلف ملوك وأمراء أوربة .

ذهب بطرس بعد مغادرته بلاط أفنيون إلى المانيا على حد قول فروازار[١] حيث مضى الى براغ لمقابلة الأمبراطور ثم إلى بولندا وعاد منها إلى فرنسا ، ويقال إن البابا أرسل خطاباً إلى دوج جنوة يخبره فيه أنه أرسل الملك بطرس بأمره إلى بعض ممالك الغرب المسيحية لاسيما فى إقليم ألمانيا[٢] ، وكان ذلك فى صيف ١٣٦٤م (= ٧٦٦ هـ) ، ويظهر أن الغموض يكتنف رحلات بطرس فى هذه الفترة ، وهو غموض لايفسره إلا أنه لم يجد تقديراً صحيحاً — فى اعتقاده — لمكانته عند البابوية مثل تقديرها لفكرة الحملة الصليبية فى حد ذاتها ، ويتضح أن بطرس أصبح يعمل لحسابه الخاص ملتمساً المرتزقة والمطوعة والمغامرين ، وذهب أيضاً إلى انجلترا يوم ٦ نوفمبر حيث قابل جماعة من الفرسان الانجليز والفرنسيين ورحبوا به وأنزلوه منزلا خاصاً به ، واستقبله ملك انجلترا إدوارد الثالث استقبالا كريماً واستضافه فى قصر وستمنستر[٣] . على أن بطرس لم يحصل إلا على وعود كلامية من انجلترا ، بل إن ملكها صارحه بأن قبرص من أملاك سلفه ريتشارد قلب الأسد[٤] ، وبذلك كان كل منهما فى هذا اللقاء يتكلم عن أمر يخصه ويسد السمع عن مطالب الآخر ، وإذا كانت إقامة بطرس فى انجلترا قد استغرقت شهراً فانه لم يتوفر له خلاله الحصول على تأكيد رسمى من جانبها فى معاونته فى مشروعه ، وإنما كان منتهى نجاحه يتمثل فى انضمام بعض الأفاقين والمخاطرين إلى جانبه ممن يدفعهم حب المغامرة إلى الانخراط تحت رايته ، ومن ثم عاد إلى فرنسا وفى النفس غصة كغصته يوم تجاهل إربان الخامس إلقاء قيادة المحاربين إليه ، وفى باريس التقى بطائفة من الأمراء أمثال دوق أنجو ، ثم رحل بعدئذ الى « بواتييه » حيث بعث الأمير الاسود من استقبله نيابة عنه لانشغاله إذ ذاك بحفلات مولد ابنه[٥] ، ورحب القوم به وأحاطوه بالرعاية

---

(١) Froissart : Chron. pp. XLII, 85.

(٢) يجعل ماشوهذه الرحلة إلى ألمانيا متأخرة عن الوقت الذى ذكره لها فروازار .

(٣) راجع الوثيقة رقم ٤ فى Mas-Latrie : His. de Chypre, II, 247.

(٤) Chroniques des Quatres Valois, p. 128.

(٥) Chroniques de Pays-Bas et de France, III, p. 201.

لخطة يريد أن ينهض بها « ترضى الرب عصاها تفتح أمامه الطرق الى الأحرام المقدسة »(١) ، واصطحبه نائب الأمير الأسود الى بعض البلدان ليستوضح مشروعه الصليبي(٢) ، ولسنا نعرف ماذا كانت فكرة الأمير ومدى موافقته على الخطة ، ولقد أصيب بطرس بضربة أليمة حين وافاه نبأ موت الكردينال « بريجورد » الذى كان من أشد المتحمسين لحرب صليبية دون نظر للقائمين بها ، وكانت وفاته يوم ١٧ يناير ١٣٦٤ ، وما لبث ملك فرنسا نفسه أن وقع فريسة المرض الذى ألح عليه حتى قضى نحبه هو الآخر يوم ٨ أبريل من السنة ذاتها وهو فى انجلترا زائراً للملكها الذى أقام احتفالات تأبين ضخمة لجان الثانى تليق بمكانته ، ثم بعث بجثته إلى فرنسا حيث شيعت جنازته ودفن فى كنيسة سنت دنيس ، ونودى بابنه شارل الخامس ملكا مكانه ، وكان من بين المشيعين للملك الراحل والمهنئين لخلفه الملك بطرس الأول(٣) الذى مكث بباريس حتى ١١ يونيو محاولا حمل الملك الجديد على الوفاء بالعهود التى قطعها أبوه من قبل بامداد الحملة الصليبية بالأموال والعتاد ، ولكنه لم يجد منه تشجيعاً أو بارقة أمل ، ولم يكن ذلك عن عزوف عن حمل الصليب أو عن قلة اكتراث منه بالصالح الصليبى وأوضاع النصارى فى الشرق بالصورة التى صورها ميزيير ، لكنه كان فى الواقع مشغولا بأحوال مملكته الداخلية وما عانته من ويلات الحروب الأهلية ، لكنه مع ذلك لم يضن بوصله ببعض المال ، ووعد بمخاطبة إمبراطور ألمانيا فى هذا الصدد باعتباره « أغنى وأقوى منه » ، ولم يجد بطرس إذ ذاك بداً من مغادرة باريس مهيض الجناح مزعزع الآمال ، وكان نجاحه فى كل مسعى من أجله هو « الكلمات المعسولة من غير ثمرة nisi in verbo jactante et effecta carente » على حد قول فيليب مزيير .

لم يحاول بطرس مقابلة البابا أربان الخامس مرة أخرى ، وإنما توجه إلى الأمبراطور الألمانى فى كولونيا وعرج فى طريقه زائراً كونت فلاندرز ودوق برابانت ،

(١) Froissart, pp. 9 seq.

(٢) Ibid. loi cit.

(٣) Chron. de Pays-Bas et de France, II, p. 201

ولعل أكبر توفيق لقيه فى هذه الرحلة الجديدة كان فى « إرفورت » حيث انضم الكثيرون إليه ثم اتصل بفردريك مركيز مسنى الذى رحب بدعواه لكنه أرجأ البت فى مساهمته فيها حتى يستشير الإمبراطور ، وكان المركيز صريحاً ، إذ جعل مساهمته سلباً أو إيجاباً رهنا برغبة الإمبراطور .

على أن نسمة من الآمال هبت وسط هذه اللقاءات التى لاتبشر بالخير المطلق حيث التقى بواحد من أصحاب الإمبراطور وأدناهم الى نفسه ونعنى به رودلف الثانى دوق سكسونيا الذى أكرم وفادته وأقام له الاحتفالات التى استمرت ثمانية أيام سوياً مكتفياً بهذا وبالأموال والهدايا التى وصله بها ، وحينذاك أيقن بطرس أن المواجهة الصريحة بينه وبين الإمبراطور(١) أجدى من الاتصال بسواه من الأمراء ، ومن ثم مضى غداة هذه الاحتفالات إلى « براج » ورحب به الامبراطور ترحيبا عظيما وقدمه إلى زوجته ، وجعل له الصدارة فى اجتماع عقده لمناقشة مشروعه الصليبى ، وربما كان ذلك لما انطبع عليه الامبراطور من تدين عميق وإن كان لايرقى به إلى التضحية والانغمار فى حرب لم تأخذ الامبراطورية والمساهمون معها فيها استعدادهم الكامل ، وكان الامبراطور فى ذلك واقعياً لإدراكه من مجريات الأحداث ما فات ذهن بطرس من طرد الصليبيين من الشرق بعد احتلالهم إياه قرنين وأكثر من الزمان ، وتجلت واقعية الامبراطور فى بيان ماتهدد الصليبين من خطر لاسيما والملك القبرصى فى قوة ضئيلة لاتستطيع أن تقف أمام القوات الإسلامية حتى ولو ضمن النصر فى جولته الأولى ضدها لذلك اقترح الامبراطور عقد مؤتمر لمناقشة هذا الموضوع فى « كراكاو » يحضره أيضاً ملكا بولنده والمجر وذلك فى سبتمبر ، وصرح شارل بأهمية النهوض بحرب صليبية تجتمع فيها القوى الأوربية فى هذا الوقت بالذات ، كما كتب إلى البابا بذلك أيضاً ، واتفق الرأى فى هذا المؤتمر على تأييد بطرس فى تجريدته الصليبية ووسيلة ذلك الكتابة إلى شتى الأمراء الألمان لدعوتهم للمساهمة فيها .

---

(١) يستفاد مما ذكره Alfred Leroux : Recherches critiques sur les relations politiques de la France avec l'Allemagne (1292-1378), p. 273 seq.

أن الحافز لبطرس على الذهاب للامبراطور ، إنما كان رغبته فى اختيار قائد صليبي جديد فى المكان الذى خلا بوفاة جان الثانى ملك فرنسا، وهو رأى فى حاجة إلى نص يدعمه، أوشهادة تزكيه ، بل إن منطق الأحداث وطبيعة بطرس ترفضان هذا الاتجاه .

كان مؤتمر « كراكاو » ذروة النصر الذى يطمع بطرس فى الحصول عليه ، لكن ماهو مدى تحقيق هذه القرارات والتوصيات واتخاذها الصورة العملية ؟

الواقع أن هناك ما يقارب شبه عدم الاكتراث ببطرس الأول كداعية لحرب صليبية يريد أن يزج فيها بدول أوربة المختلفة تحقيقاً لغروره الذى زاده حدة وعنفاً انتصاره فى الملايا وأنطالية من قبل ، وإذا كان ليو الخامس — ملك أرمينيا — قد التمس منه النجدة فان الوضع هنا يختلف كل الإختلاف عن سابقه . ومن ثم لم يبق أمامه إلا الرحيل إلى قبرص وفى جعبته وعود وعهود وفى نفسه آمال وآلام ، وكان حرياً به بعدئذ أن يستعرض رحلاته وما تمخضت عنه ويزن بميزان العقل مدى ماقد يصيبه من نجاح أو فشل إذا نهض بحملة ضد مصر ، لكن يبدو أن اندفاعه كان أقرب إلى التهور منه إلى الخطة القائمة على دراسة جدية عميقة لقوة مصر الحربية ، وشاء أن يجعل ختام رحلته زيارة الجمهورية التى كانت منها بداية جولاته فى أوربة فمضى فى نوفمبر ١٣٦٤ إلى البندقية التى أكرمه دوجها «شلزى» ووصله بكثير من الهدايا وخطا خطوة أكبر ممن خطوات من قابلهم بطرس الأول من قبل ، فأعد سفينة حربية جهزها بكل معدات القتال ، وكان شكر بطرس للدوج يلائم ما قام به الدرج نحوه ونحو مشروعه ، وأخيراً بعد إقامة طالت ستة أشهر فى البندقية غادرها الملك القبرصى يوم ٢٧ يونيو ١٣٦٥ ميمماً شطر بلده ، ووصله بعد قليل خطاب من البابا يبارك فيه خطواته القادمة هو ومن معه من المحاربين المسيحيين وقد أبقى بطرس وجهة حملته سراً حتى على من معه من المقاتلين ؛ والمعروف أن البندقية لم تكن جادة فى تأييد بطرس حرصاً على مصالحها وامتيازاتها التجارية فى الشرق الإسلامى ، ومن ثم صدرت الأوامر إلى نوابها فى كريت بالإتصال بالمسلمين فى مصر تنبههم بأنها ليست ضالعة فى هجوم قد يشنه بطرس عليهم بعد عودته من آسيا الصغرى ، والواقع أن البندقية كانت تقف مع الجانبين ، ففى الوقت الذى ترسل فيه هذه الإخبارية إلى مصر كانت سفنها تنقل المحاربين من شتى الأجناس(١) الذين انخرطوا تحت راية ملك قبرص ، وأرسلت الرسائل إلى أمير أنطاكية بإعداد مجموعة من السفن تنضم إلى الأسطول الملكى المحارب ، حتى لقد بلغت عدة السفن الحربية المختلفة الأنواع ٧٢ واحدة على حد بعض الأقوال ،

---

(١) Cf. Chron. des Quatres Valois, p. 164.

ومائة على بعض أقوال أخرى(١) ، وكان بصحبته فى هذه اللحظة المندوب البابوى وفيليب دى ميزيير، فقام الأول باعطاء الصليب للجميع دون تفرقة بين مذهب وآخر، واعترف الجميع وتناولوا القربان ، وكان فيهم « من لم يتناوله منذ عشرين سنة » .

حين فرغ الكلام من تلك الطقوس الدينية اجتمع كبارهم فى مجلس خاص يتشاورون فى تحديد وجهة الحملة(٢) ، وهنا برز برسفال الكولونى واقترح الاتجاه إلى الإسكندرية ، فقد عرفها من قبل وقت أن كان بها أسيراً وعرف مسالكها ودروبها ، وراح ييسر لهم أمر الفتح ويهون عليهم ما يلقونه من المقاومة ، ووجدت هذه الدعوة استجابة من بطرس الذى وقف فى سفينته وحوله من اصطفاهم من علية القوم ووجوههم(٣) ومن بينهم فيليب دى ميزيير ، وبعد أن باركهم المندوب البابوى وبارك الرايات الخفاقة صعد السفينة الملكية وردد الأفق هتافات القوم ودوى الطبول والأبواق والكوسات ، وصاح الجميع يهتفون ببطرس ملك بيت القدس وقبرص وقاهر المسلمين الكفرة »(٤) .

وهنا أخذوا يتشاورون أيتجهون إلى آسيا الصغرى أم إلى الشام أم إلى مصر ؟ وكان ذلك التشاور يوم السبت ٤ أكتوبر ١٣٦٥ ، واتجهوا فى اليوم التالى إلى إحدى الجزائر بخليج خلقدونية لأخذ كفايتهم من الماء ، ثم انطلق الأسطول نحو

---

(١) اشترك فى هذه الحملة شعوب أوربية عدة فكان منهم الفرنسيون « يمثلهم مارتل دى باسكفيل الذى روى فيما بعد لماشو المؤرخ تفاصيل الحملة » ، والانجليز « ومنهم ريتشارد لورد جراى الذى كان من أوائل من دخلوا الاسكندرية بعد الغزو أنظر Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History, p. 194 ، وفرسان التيوتون والألمان والطليان وبعض البيزنطيين وجماعة الفرسان الأسبتارية ومنهم مائة فارس بأسلحتهم ، أنظر أيضاً Makhairas : op. cit., II, No. 167, n. 7 .

(٢) Jorga : Philippe de Mezières, p. 284.

(٣) Cf. Makhairas : op. cit.,

(٤) Jorga : op. cit., p. 285 note 3; Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 347.

وكان هتافهم إذ ذاك :

Vivat vivat, Petrus Jerusalem et Cepri rex, contra Saracenos infideles.

الاسكندرية ، وحينذاك ظهرت روح قوية من المعارضة فى هذا السير تخوف القوم مغبة المقاومة الـكبيرة التى يمكن أن تقوم بها هذه المدينة .

* * *

ترى ما هى الدوافع التى جعلت بطرس يندفع أخيراً فى غير تردد لتوجيه الحملة إلى الاسكندرية دون باقى المناطق والأقطار ؟

ربما قيل إنه رتب من قبل — فما بينه وبين نفسه على الأقل — هذا الاتجاه ، ولعله قد أوحى به صراحة — أو تلميحاً — الى برسفال الـكولونى ، فكان من ذلك مباغته الاسكندرية ، على أن النويرى لخص أسباب الإقدام عليها دون غيرها فيما يلى :

١ — غضب الغرب من قرار أصدره الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٥٦هـ بمنع استعمال أهل الذمة فى الديوان ، وإلزامهم بملابس خاصة[1] .

٢ — رفض السلطان الناصر حسن تحقيق طلب بطرس — حين ولى ملك قبرص — من التوجه الى بلدة صور ليجلس على عمود « كعادة كل من تملك جزيرة قبرص » .

٣ — شجعه على ذلك أن مركباً قبرصياً كان قد تحترم فى الميناء الشرقية بالاسكندرية فى سنة ٧٥٥ «وبه كراسلة» أى « صليبيون » فلم ينهض لدفعه أحد .

٤ — وثوب أهل رشيد على فرنجى تخلف من جماعة هاجمت البلد وقتلهم إياه .

٥ — هجوم بعض الفرنج فى ٢٧ شعبان ٧٦٤ على « بوقير دون أن يجرد أحد من أهلها فى وجوههم سيفاً فطمع بطرس فى الاسكندرية » .

٦ — انتقامه لما جرى لبعض البنادقة من قتل على يد « عوام المسلمين بالاسكندرية » .

على أن بعض هذه الأسباب يبدو فيه الافتعال والتماس العلة لعدم مقاومة المدينة كمسألة التنبؤ بسقوطها يوم « جمعة » على يد « ملك مسيحى من الغرب » لـكننا

---

(١) راجع المقريزى طبعة زيادة ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٩٢٤ .

نستطيع أن نقول إن الملك القبرصى كان يعلم بضعف ناحية الباب القديم من الاسكندرية[١].

على أية حال بلغت الحملة مشارف الاسكندرية يوم الخميس ٩ أكتوبر ١٣٦٥ وازدهت الفرحة الغزاة وطالعتهم قباب كنيستى القديس مرقص والقديسة سنت كاترين والعمودان اللذان يقول المسيحيون أن القديسة كاترين استشهدت عندهما ، والحجر الذى قطعت عليه رقبة يوحنا المعمدان[٢] ، وأبصروا عن بعد المسلمين فى عمائمهم البيضاء والنصارى فى قلانسهم الزرقاء واليهود فى طواقيهم الصفراء كما يستدل على ذلك من وصف أحد الرحالة المعاصرين ، وكان بالمدينة كثير من الفنادق الخاصة بالجاليات الأوربية المختلفة كالبنادقة والفرنسيين والقشتاليين والجنوية وأهل مرسيليا والقبارصة[٣]، بل وكان للمدينة ستة أبواب من الحديد ، هذا إلى وجود صهاريج[٤] للمياه بها . كما كان جزء من مياه الشرب يأتيها عبر قنوات قامت على حافتها بيوت الأهالى ، وتستطيع المدينة الحياة على ما فى هذه الصهاريج حتى فى أيام الحصار الطويلة اللهم إلا إذا سيطر العدو على هذه القنوات لا سيما عند باب رشيد .

على أن الاسكندرية لم يكن معنياً بها كخط دفاع عن البلاد ، فكانت حاميتها قليلة[٥] العدد ، ولم يكن لدى الأهالى من السلاح ما يستطيعون به دفع المغير ،ويبدو أن سكانها لم يكونوا يتوقعون هجوماً ليس له مايبرره من مجريات الأحداث السياسية ، بل لقد ذهب بهم الظن إلى أن هذه السفن إعاجاءت للمتاجرة والاستبضاع، وراحوا يختلطون بهم « وظن أهل الاسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم

(١) أنظر جمال الدين الشيال: الاسكندرية ، طوبوغرافيتها .

(٢) T. de Swynburne : Arch. de l'Orient Latin, II, 380.

(٣) أنظر وصف اسكندرية — وإن كان قبل ذلك بقرنين — من الزمان والأمم الغربية التي يعيش أبناؤها فيها فى رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥ ، صفحة ١٧٨ — ١٧٩ .

(٤) النويرى : الأعلام .

(٥) Scheffer : Etude sur la diése de Chemins de Babiloine, (Ar. Or. Lat,) II, 98.

على جارى عادتهم فى كل سنة ، وكان تجار المسلمين جلبوا لهم من الهند أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم »[١] فكانت فرصة للغزاة للاستجمام تأهباً لقتال العدو ومهاجمة الثغر ، حتى إذا كان العاشر من أكتوبر (= ٢٢ محرم) أفصح القادمون عن حقيقتهم واقتربت مراكبهم « إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة وذلك من جهة الباب الأخضر المسدود ، .... وكان الباعة قد خرجوا من البلد بطباليهم وقدورهم ودستوتهم ملآنة بالطعام يبيعونه على من بالجزيرة »[٢]. ولم يكونوا فى سلاح يستطيعون به ودفع هذه الجماعات المغيرة فالفرنج لابسون الحديد من المفرق إلى القدم ، والمسلمون كلحم على وضم » « فكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد والنضيد »[٣] .

واستمر القتال يوم الجمعة واستبسل الأهالى والمغاربة فى الدفاع عن « مدينة الإسلام» ما وسعهم الجهد ، وكان والى المدينة صلاح الدين بن عرام غائباً عنها فى الحج وسلطان البلاد شعبان بن حسين فى سرياقوس وأتابكه يلبغا العمرى فى الصيد ، أما القائم بحراسة الثغر فاسمه « جنفرا » .

بدت الأمور هينة أمام المغيرين الذين لم يجدوا ثم عسكراً يخرج لملاقاتهم ، وإنما كان جماع المقاتلين أفراد العامة والبدو وبعض المغاربة وأهل الربط والخانقاوات ، ورأى الملك أن ينزل المحاربون إلى المدينة فى الصباح وكان دق الكوسات على مراكبه إيذاناً ببدء الهجوم ، وكان القتال عند الباب القديم ، وكان من رأى المغاربة « أن يدخل الناس المدينة يتحصنون بأسوارها الحصينة ويقاتلون من خلف الأسوار ليظن العدو أن خلفها كل رجل كالأسد المغوار ، يذيقونه برميهم عليه الشدة ، إلى أن تصل من مصر النجدة »[٤] ، لكن أهل الربط خافوا على ربطهم فلم يلتفتوا لهذا الرأى ، ومن ثم يلومهم النويرى فى قوله « لو كان المسلمون ... تحصنوا بالسور وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور ، لسلموا من القتل والنهب والأسر ... فالذين

---

(١) النويرى : شرحه .

(٢) النويرى : شرحه .

(٣) النويرى : شرحه .

(٤) النويرى : شرحه .

خافوا على ربطهم تخربت ، ودورهم التى داخل البلد[1] نهبت » ، وحينذاك تسلل أحد الهاجمين واسمه « فراينو » مع ثلة من المحاربين وحاصروا المدافعين عن الثغر ، وأخذت سهام الغزاة المسلمين من كل جانب فجمحت الجياد ، وجرح جنفرا نفسه .

على أنه يبدو أنه لم يكن من اليسير على المهاجمين احتلال الإسكندرية ولم تجدهم نفعاً مفاجأتهم إياها على حين غفلة منها ، وأدركوا أن الوقت فى صالح المسلمين إذ لابد أن تأتيهم النجدات من القاهرة ومن غيرها من مدن الدلتا ، وحينذاك قد تدور الدائرة على المغير ، وتضيع مصالح المسيحيين الأوربيين داخل البلاد ، ومن ثم أخذوا فى التشاور فيما بينهم عما يصنعون ، فرأى البعض منهم ألا جدوى من الاستمرار فى مهاجمة الثغر ، وأن الخير فى العودة من حيث جاءوا ، وكان « أميرال » رودس حامل لواء هذه الفكرة المؤيد لها ، غير أن ذلك أغضب بطبيعة الحال الملك الذى أصبحت كرامته بين ملوك النصرانية وشعوبها مرهونة بانتصاره وتحقيق مشروعه الذى قضى ثلاث سنوات فى تجميع القوى من أجله ، يضاف إلى هذا أن إخفاقه فى الاستيلاء على الإسكندرية يؤكد صحة فكرة البابا عنه حين جعل قيادة القوات المحاربة لجان الثانى ملك فرنسا ويؤيد ما انطوت عليه نظرة ملك انجلترا من عدم تحدثه جدياً معه فى شأن ما جاءه من أجله استخفافاً منه به ، لذلك تقدم بطرس رافعاً علمه الخاص ونادى بالهجوم على المدينة ، وأعلن منحه ألف أفلورنق لأول مقتحم لأسوارها وخمسمائة لمن يليه وثلاثمائة لمن يأتى بعدهما ، ولقد وجد بطرس أكبر مؤيد له فى الهجوم فى شخص « برسفال الكولونى » الذى اقترح إذ ذاك أن يشن الغزاة حملتهم من ناحية باب البحر ، وأخذ هو بنفسه القيادة فى هذه الجبهة .

على أن المقاومة البرية من أهالى الأبراج ردته فى أول هجمة على أعقابه ، فلما علم بطرس بذلك الارتداد المهين أنكره عليه ، وأخذ هو على عاتقه مهاجمة المدينة واصطحب معه جماعة من البارونات والاسبتارية ، فكان التوفيق حليفه هذه المرة وهاجم الباب وأضرم فيه النار وبذلك تحقق له النصر ، ووجد أحدهم ناحية باب الديوان من غير حراسة فاقتحمها واقتحمها معه جماعة آخرون ، وحينذاك فر المسلمون

---

(١) النويرى : شرحه .

إلى الداخل ، وتقدم الغزاة فدخلوا المدينة من ناحية باب البحر وكان دخولهم إياها ظهيرة يوم الجمعة ١٠ أكتوبر ، وحينذاك اندفع الإسكندريون إلى باب سدرة والزهرة ورشيد ، وجرت مذبحة فظيعة فر إثرها من بقى على وجوههم حيارى أمام الملك « الذى لم يجد بالإسكندرية أحدا من جيش الحلقة ، فدق فيها بجيشه دقة ، وأكل اللحم وشرب المرقة » .. وتمكن جيشه منها بعد صلاة الجمعة ، فنهب وسبى وحرق وخرب بعد أن قتل من المسلمين كثيراً ... وكان الرجال على الساحل ليس عليهم ملبوس حرب طائل ، فرماهم الفرنج بالسهام فطاروا كطيران الحمام(١) ، وأراد الملك التقدم شطر القناة (المحمودية الآن) لكنه كاد أن يقتل وكانت نجاته بالفرار إحدى المعجزات .

* * *

كان الخبر قد وصل إلى القاهرة فبادر السلطان بإرسال الأتابك يلبغا على رأس جيش بالغت المصادر (٢) الفرنجية فى تعداده فجملته مائة ألف مقاتل ، وكان فى مقدمتهم قطلوبغا المنصورى(٣) .

هنا أخذ البعض يحبذ فكرة الارتداد ، وازداد عدد أنصاره لحظة بعد أخرى وحسبنا أن نشير إلى أن من بين هؤلاء كبار رجالاته أمثال أميرال ردوس وفيكونت تورين والمغامرون الإنجليز والفرنسيون ، بل إن أخوى الملك انضما إلى هذا الفريق المنسلخ عن التقدم فى مصر ، وهكذا وجد بطرس نفسه فى شرذمة ضئيلين لا يجاوزون مائة فارس ، وحيط به وتعقدت الأمور بصورة حملته على الارتداد إلى سفنه الباقية فى الميناء القديم ، بعد أن أعمل الجميع النهب والسلب والقتل فيما أمامهم ومن صادفوه من أهل الثغر ونازليه ولم تكف أيديهم حتى عن كثير من الجاليات الأوربية التى اتخذت الإسكندرية داراً لها ، ولم يجد الغزاة من يقف فى سبيلهم حين ارتدادهم إلى شوانيهم وأغربتهم وحينذاك كانت القوات المصرية قد

---

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٢٣٥ .

(٢) Chron. des quatre valois, p. 166.

(٣) راجع المقريزى : السلوك .

وصلت فاحذت فى محاربة القلة الباقية من الفرنجة الذين وقفوا قرب القناة لحماية المرتدين[1] ، ورأى الملك بطرس يعبق رأسه الصلبان تخلع من الأماكن التى وضعها فيها .

وكأن القدر كان يدخر للغزاة ضربة أخرى أنزلها بهم حيث هبت عاصفة فرقت سفنهم ، فعزاها مزيير — وهو من هو فى تدينه — والمندوب البابوى إلى « نقمة الرب وغضبه » وكتب الأخير رسالة إلى البابا تقطرأسى[2] وحسرة من هذا «الارتداد المخزى» وصدق النويرى إذ يقول فى أكثر من موضع « جاءها لصاً وخرج منها لصاً » ، وعاد الأسطول إلى ليماسول حتى مضى كل واحد لوطنه . أما الملك فقد أصدر أمراً بمنع المتاجرة مع مصر .

على أن الجانب المصرى أخذ يلعق جراحه بعدئذ مباشرة . فبادر يلبغا باعادة ترميم الإسكندرية وتحصيناتها . وصادر أملاك الكثيرين من فرنجة مصر والشام تعويضاً عن الخسائر التى لحقت بأهل الثغر[3] .

* * *

لكن هل انتهت الواقعة إلى هذا الحدمن الأحداث ؟ وهل كان ارتداد الجيش المهاجم خاتمة لذلك الغزو ؟

الواقع ينفى السكوت ، فقد عمد الملك إلى إرسال مندوب عنه هو « جان الصورى » — أميرال قبرص إلى كل من البابا وملك فرنسا ودوج جنوة يطلب منهم مساعدته ، وكان بدء هذه السفارة فى مارس ١٣٦٦ م (= رجب ٧٦٧) ، ووجد عطفا من جميع أنحاء أوربة على ما قام به من عملى صليبى وإن أرجعوا فشله عن تحقيق هدفه النهائى إلى خيانة من كانوا معه من المحاربين ، وترددت صيحة تطالب بالنجدة ، ومضى السفراء إلى بلاط أر اجون لدعوته للاشتراك فى حملة قادمة ، وإن

---

(١) Jorga: des quatre valois, p. 166.

(٢) Lorga: Ph, de Mezières, p. 303.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية » ط القاهرة ١٣٥٨ » ج ١٤ ص ٣٢٣ .

كانت رسله فى هذا الوقت بالذات بمصر تسأل العفو عن أسرتهم مصر من أهل بلده وتطلب عقد معاهدة بين البلدين .

لقد كانت هناك أطراف كثيرة يمنيها أن ينعقد الصلح بين قبرص ومصر ، ولكل منها دوافع تختلف عن بواعث الأخرى ، على أنه وجد إلى جانبها جماعات كان من صالحها أن تظل الحرب مشبوبة بين الطرفين ، والتوتر مستمراً ، ومن هذه الطائفة الأخيره جماعة الفرسان الاسبتارية الذين كانوا يرون فى الحرب مظهراً من مظاهر فروسيتهم وتوجيهاً للفكر الأوربى نحوهم باعتبارهم حينذاك حماة لدين الذايبين عن بيضته والناهضين بعبء مقاتلة المسلمين فى وقت قصرت فيه دول أوربية كبرى - بمفهوم ذلك العصر — عن متابعة الحرب جدياً ، ويقف إلى جانب الاسبتارية فى هذا الاتجاه الجيش القبرصى الذى « كان يهتم بالسلب والنهب » ، وهو أمر لم يخف على جماعات كثيرة من مستشارى الملك فصارحوه بهذ الواقع مصارحة لا تقبل الجدل[1] .

أما الأطراف الراغبة فى الصلح فكانت قبرص ومصر ذاتهما وجماعات التجار الأوربيين .

أما قبرص فقد رأى ملكها رأى العين عدم تحمس الدول الأوربية بصورة عملية للحرب وقتال المسلمين فى وقت انشغل فيه معظمها بالمنازعات الداخلية والقتال على الحدود الخاصة به ، وقد ترجم النويرى عن ذلك ، ولكن بصورة أخرى حين قال[2] : «إن ملوك النصرانية لامته على هروبه من الإسكندرية ، وقالوا له إن الذى فعلته فعل اللصوص لافعل الملوك . . . . دخلتها لصاً وخرجت منها لصاً وذلك لعدم قدرتك على مقاتلة سلطان مصر ، فثبتت لصوصيتك عند سائر ملوك مصر وسائر أجناس الرومانية » .

كذلك فإن قبرص تأثرت من غير شك بالهزيمة التى لاقتها فى الإسكندرية حين انسحبت قواتها بعد أن اقتصر دورها على النهب والقتل والحرق والتدمير ، وأدى

---

(١) Makhairas : op. cit. loc. cit.

(٢) النويرى : الأعلام ، صفحة ٥١٦ .

هذا كله إلى إخلال الميزان التجارى لها[١] ، وقد شاركها فى هذا الوضع الأخير بعض الجمهوريات الإيطالية التجارية لا سيما البندقية ثم جنوة ثم جماعة التجار الكتلان ، ومن ثم اتحدت البواعث لدى هؤلاء على التماس الصلح وعقده حتى تظل التجارة آخذة مجراها الطبيعى ، وشرعت البندقية فى إرسال سفراء عنها إلى السلطان تسأله العفو عن رعاياها البنادقة المقيمين بمصر وترجوه رد أملاكهم إليهم وتجديد ما بين البلدين من اتفاقيات ، غير ملقية السمع إلى رجاء البابا إياها فى الامتناع عن مراسلة مصر بل ضربت بالتماسه عرض الحائط ، وتعددت سفاراتها إلى مصر ، وترددت بينها وبين قبرص ، فكانت أول سفارة رسمية منها فى ٢٩ يناير سنة ١٣٦٦[٢] ، وعلى رأسها فرنشسكو بمبو F. Bembo ، ولقد أوضح ماخيراس ، معاصر هذه الأحداث أن رسل البندقية وقفوا أمام السلطان يتنصلون من معرفتهم بعقدم الأسطول القبرصى إلى الإسكندرية ويبرءون من مساعدتهم إياها فى تدبير خطة الهجوم الفاشل[٣] .

لم يفت البندقية فى الوقت ذاته أن تبعث إلى البابا رسلا آخرين تفسر موقفها وأن « تجارتها هى حياتها » ، وأن التوقف عن المتاجرة مع مصر هو « النهاية الحتمية للوجود البندقى ، وألحت بالائمة فى الوقت نفسه على ملك قبرص الذى لم يرع فى هجومه على الإسكندرية جاليتها التجارية هناك فامتدت يده بسلبها حتى لقد نال هذه الجالية من الضر أكثر مما نال المسلمين » . لكن ذلك العذر لم يجد عناية لدى البابا إربان الخامس الذى لم تكن البندقية تتوقع منه غير الرفض ، أو على الأقل سكوته عن مسلكها من غير لا أو نعم ، ولذلك كان اعتمادها على ما تتمخض عنه سفاراتها إلى مصر التى أوقفت ردها على التعرف شخصياً على رأى الملك القبرصى[٤] .

---

(١) أشار إلى هذا النويرى فى الأعلام ، صفحة ٥٢٧ ، حين عرض لموقف القيارصة وتأففهم من ملكهم وتفكيرهم فى الانقضاض عليه وتولية أخيه مكانه حيث قالوا له « قصدنا الإراحة منه (أى من الملك) وعلكك رقابنا لتخمد الفتن ونصطلح مع صاحب مصر لتصير بضائعنا تباع بالأسكندرية لنربح فيها الفوائد القوية ، كما كنا أولا ، ونجبر فيها بضائعنا الكاسدة التى صارت بفعل أخيك فاسدة » .

(٢) Mas-Latrie : Hist. de Chypre, III, p. 753.

(٣) Makhairas : op. cit., II, No. 176.

(٤) كان الملك قد فقد فى هذه الأثناء أحد اثنين كانا من أكبر المشجعين له على التجريدة الحربية ونعنى به « بيير توماس » وكانت خسارته إياه « أعظم من خسارته الأسكندرية » .

فى هذه الأثناء جاءت رسل البندقية الوافدة من القاهرة (أبريل ١٣٦٦) ، غير أن قبرص كانت قد أعدت حملة بقيادة أميرال قبرص الجديد بطرس دى موسترى لمهاجمة بيروت[١] ، فأنكر البنادقة ذلك العمل من جانب الملك ، ورأوا مقدار الخطر العظيم الذى يهددهم إن هو أنفذها ، وأفصحوا له عن مخاوفهم والتمسوا منه مصالحة مصر حتى يتسنى لهم أخذ بضائعهم ، وحينذاك ، «يفعل ما يحلو له» ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فعرضوا عليه أن يدفعوا له كل ما أنفقه على إعداد هـذا الأسطول الجديد ، فاستجاب لهم ووعد بتأجيل الحملة حتى يرى ما تتمخض عنه مطالبه منهم التى تتلخص فى أن يرسل السلطان المملوكى إليه سفراءه للتفاوض فى عقد السلم[٢] ، وإذا كانت الحجة التى تذرع بها بطرس فى هذا التأجيل هى « حبه للبنادقة » و « كراهيته فى أن يلحقهم ضرر يكون هو سببه » فإنه يبدو لنا أن هناك دافعاً آخر حمله على التظاهر بالاستجابة لهم هو أن مصر شرعت فى ذلك الوقت فى بناء سفن حربية جديدة فى بيروت ، وأخذت بعض سفنها تهاجم سواحل قبرص مما حمل الاسبتارية على الشروع فى دعوة الغرب للاتحاد لمواجهة الخطر الإسلامى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط .

على ضوء هذا يمكن أن نفسر قبوله لعرض البنادقة وإصداره أوامره إلى قائد قواته البحرية « جان دى موسترى » فى الكف عن النهوض لمهاجمة بيروت.

غادر رسل البندقية فاماجوستا ومضوا إلى القاهرة مقدمين عروض الجانب القبرصى فاستجابت لهم القاهرة وأرسلت من يمثلها ، وركبوا سفينة بندقية بلغت بهم جزيرة قبرص يوم الأحد ٣١ مايو ١٣٦٦ ، ودخلوا نيقوسيا يوم ٢ يونيو فأنزلوهم فى منزل أحد كبار لوردات الجزيرة حيث اجتمع الملك ووجوه رجال مملكته الذين يبدو أنهم كانوا كارهين للحرب ، فقد بينوا له وجوب استجابة سلطان مصر لأن « النهب لا ينتفع به غير الجيش ، أما نفقات الحملة فعليك أنت وحدك » . والظاهر أن هؤلاء الرسل لم يكونوا مفوضين فى التحدث فى شروط الصلح ، وإنما كان إرسالهم إثباتاً لحسن

---

(١) Makhairas : op. cit., N. 177.

(٢) لكنه طلب إليه توجيه قواته لمهاجمة بعض البلاد التابعة للأتراك ، ومن ثم ذهب إلى العلايا التى يسميها Machaut : La Prise d'Alexandrie p. 120, بكانديلور، وربما كان ذلك تحريفاً لاسم البقعة التى شيدها عليها علاء الدين السلجوقى حيث كانت تعرف باسم Coracesium ، راجع لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٨٣ .

نوايا السلطان ورغبته فى عقد السلم والاستجابة لوساطة البندقية وعدم ردها مخذولة فيما جاءته من أجله ، وتخلو المراجع من الإشـارة إلى الحديث عن شيء من مطالب السلطان ، واكتفى الرسل بإعطاء ملك قبرص الهدايا المرسلة من شعبان بن حسين .

الظاهر أن هذه الوفادة — رغم سلبيتها المطلقة — أرضت كبرياء الملك أمام أهل مملكته من الرعايا والنبلاء إلى جانب ما كان لها من صدى عند دول أوربا ، وقد بعث الملك ثلاثة من قبله — رداً على هذه السفارة — هم يوحنا الفونس الكتلانى وجورج ستيكا وبولص البولونى ومعهم الهدايا للسلطان ولكبار رجال مملكته ، وانفكأ الوفدان إلى مصر : المصريون فى سفن البندقية والقبارصة فى غراب قبرصى .

استقبلتهم مصر استقبالا طيباً ، ولم يرتفع صوت فى مجلس السلطان أو خارجه باستنكار الصلح مما يشير صراحة إلى رغبة مصر فى السلم والمهادنة ، بل لقد أرسلت وفداً من رجالها صحبة رسل الملك القبرصى وزودتهم برسائل تتضمن مطالبها التى كانت تتلخص آنذاك فى رد من أسرهم الملك من المسلمين أثناء إغارته على الإسكندرية حتى يقوم ذلك دليلا على حسن نيتـه وصدق طويته ، ويكون مقدمة لصلح يستقر عليه الطرفان ويلتزمان به فى المستقبل ، فلم يعارض بطرس فى هذا الطلب الذى رآه طبيعياً ، وأمر بجمع الأسرى ووكل بهم إثنين هما : « وليم دى راس » ، وكاتب ديوانه سير « بولص دى بولون » غير أن الأول منهما ما لبث أن داهمه مرض عاقه عن متابعة الرحلة فنهض بها الثانى وإن ظل على ظهر مركبه خارج الإسكندرية ، ولكنه أرسل الأسرى إلى القاهرة .

على أننا لا نعرف الداعى الذى حدى بسير بولص على عدم النزول إلى الساحل حين وصوله إياه ، وإن كان ماخيراس[1] يعلل ذلك « بحصافته وفطنته » فعلى الرغم — كما يقول هذا الكاتب — من أن الذين ذهبوا لاستقباله خاطبوه بلسان معسول ليدخل الميناء إلا أنه توجس منهم خيفة حين رآهم يتهامسون فيما بينهم فذهب به الظن إلى أنهم يتآمرون عليه ، ومن ثم شرع القلاع وأبحر إلى قبرص[2] ويحاول نفس

---

(١) Makhairas : op. cit. No. 185.

(٢) ينص Iorga, op. cit., p. 353 صراحة على أن بولص هذا ألقى القبض عليه فى مصر ، ويؤرخ لذلك أكتوبر ١٣٦٦ .

المؤلف تبرير هذا الموقف بأنه لما ترامى إلى سمع السلطان تراجع[1] الغرب عن تجميع قواته لمحاربة مصر ، احتج السلطان بأن قبرص أوفدت رسلا أقل مكانة ممن ينبغى إرسالهم لمثله ولمثل هذا الموقف .

تأزمت الأمور من جديد بين الطرفين فى تحقيق ما سعت البندقيـة من أجله وتعثرت خطوات الصلح بين الطرفين ، وأنحى الملك على البنادقة باللائمة إذ عدهم قدسخروا به فيما اضطلعوا به ، ورماهم بأنهم هم الذين كانوا السبب فى انصراف الغرب عن متابعة تجميع قواه لمساعدته فى محاربة مصر ، وحينذاك عاد الملك من جديد لتحريك القوى الأوربية لإنجاده فى مشروعه فى الهجوم على السلطان المملوكى فى أرضه وتوابعها ، فأرسل إلى أميديو السادس (١٣٤٣ — ١٣٨٣) كونت سافوى — وكان إذ ذاك فى القسطنطينية — فوجده بعد لأى ، ولكنه اعتذر عن المساهمة فى الحرب إلى جانبه بانشغاله فى مساعدة قريبه الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجس[2] فكان ذلك ضربة للملك وإن خففها عنه تطوع فيلو ريموند دى لسبار بسفنه وجون الأبلينى صنجان بيت المقدس وهو ابن خالته ، وساعدت الظروف الملك حين هاجم أهل بروت سفناً للبنادقة مما حمل الأخيرين على تأييد بطرس .

* * *

خلا المسرح التجارى فى موانى مصر إثر هذا الحادث من البنادقة مما أفسح المجال لتجار الكتلان الذين استغلوا الفرصة لصالحهم فطالبوا ملكهم بالتفاوض مع مصر حتى يمكن لبضائعهم أن تجد بها السوق النافقة بيعاً وشراء ، فلم يتوان ملكهم عن إرسال بعضهم رفقة رسول من أسرته ، لكنهم وجدوا اعتراضاً من جانب السلطان حملهم على المضى إلى قبرص ، وذلك فى نوفمبر ١٣٦٦ ، وحينذاك بادر رئيس فرسان الاسبتارية ريموند بيرنجر (١٣٦٥ — ١٣٧٣) فى رودس بإرسال سفن لحساب منظمته لمساعدة ملك قبرص ، وبذلك اجتمع لديه عدد ضخم من السفن الصغيرة والكبيرة المحاربة ، وجعل الملك لنفسه القيادة ، وعين بقية الرجال المحاربين قواداً للسفن الأخرى .

---

(١) وذلك بناء على ما كان ملك قبرص قد أذاعه وبينه لهم من قرب عقده السلم مع مصر .

(٢) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 617.

فلما كان يوم عيد[١] الميلاد عند الشرقيين من سنة ١٣٦٧ (٥ جمادى الأولى ٧٦٨) خرج الأسطول أبهى ما تراءى ولكنه ما كاد يتوسط البحر حتى هبت عاصفة هو جاء فرقته بعضه عن بعض «ولم تستطع سفينة أن ترى أين ذهبت الأخرى » على حد قول ماخيراس[٢] وظلت العاصفة تصرف المراكب وجهات مختلفة ، فردت الملك إلى ساحل جزيرته ووجهت سفينة لسبار وأخريات معها إلى ساحل بلاد الشام حيث هاجمت طرابلس وأسروا إحدى الشخصيات الكبيرة واسمه المقدم داود[٣] ، وإلى هذا يشير ابن كثير[٤] فى قوله « وقد بلغنى أن الفرنج جاءوا طرابلس غزاة وأخذوا مركباً للمسلمين من الميناء وحرقوه والناس ينظرون ولا يستطيمون دفعهم ولا منعهم وأن الفرنج كروا راجعين وقد أسروا ثلاثة من المسلمين » على أن النويرى[٥] يفسر هذا الهجوم تفسيراً آخر ، يعزوه إلى لوم ملوك الغرب إياه على عدم قدرته على إتمام حربه فى الاسكندرية ، وأنه لما سمع قالتهم وتأنيبهم إياه « كشف رأسه ، وخلع من رجله مداسه . . . وجمع المشئوم ، من أقاليم الروم ، كل كافر مذموم ، وقصد طرابلس الشام فى سنة ثمان وستين وسبعمائة ، فأرسل الله عليه ريحاً عاصفاً كسر من مراكبه بضعة عشر مركباً ، فغرق من فيها وتفرقت بقية المراكب ، فمنها سالم وعاطب . . . ثم أتى إلى طرابلس الشام » . .

ويقال إن مصر خشيت مغبة هذا التجمع الحربى ، وأدركت مدى الخسارة التى لحقت بالثغر الشامى من جراء امتناعها عن الصلح ، فأطلقت سراح جماعة من

---

(١) اعتبر Jorga, op. cit., p. 354. خروجه يوم ١٧ يناير ، وقد بين التاريخ الصحيح الأستاذ داوكنز فى تعليقاته على ماخيراس (II, No. 191, n. I) وبين أن اختلاف التواريخ راجع الى سهو من الناسخ فى الخطبة الأصلية لماخيراس .

(٢) Makhairas : op. cit. No. 191.

(٣) Cf. Makhairas : op. cit. loc. cit.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/٣٢٣-٣٢٤ .

(٥) النويرى : الأعلام ، ص ٥١٧ .

كبار أسرى القبارصة والفرنجة وأرسلت[1] معهم رسلا من قبلها إلى بطرس لطلب الموادعة التي زكاها لديه كبار رجالاته وخوفره « من ثروة سلطان مصر التي لا تنفد مهما صرف منها على شئون الحرب » فقبل فكرة المسالمة ، وكان ذلك بحضور رسل السلطان يوم ١٠ فبراير ١٣٦٧ (= ٩ جمادى الثانية ٧٦٨هـ) .

واشترط الملك شروطاً قبلها سفراء مصر ، وقد اهتم اهتماماً خاصاً ببيت المقدس ولعل الإصرار عليها كان لتثبيت مكانته في نظر حكام الغرب ، واشترط بطبيعة الحال إرجاع الأسرى إلى قبرص ، على أن من هذه الشروط ـ كما يذكرها مؤرخ هذه الحادثة[2] ـ ما لا يكاد يصدقه العقل إذ اشترط « أن يكون له نصف دخل مكس مايدخل الجمرك في مصر والشام » كما طلب أيضاً إعفاء الحجاج المزودين بخطابات توصية منه من ضريبة الزيارة في بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة الأخرى ، وعلى السلطان أن يبعث إلى فاماجوستا بالعمود الذي يقال إن السيد المسيح ربط عليه .

وأوقف السفراء المصريون نفاذ هذه الشروط على موافقة السلطان النهائية عليها . وليس من شك أن هذه شروط عليها الغالب وليس بطرس في هذا الموقف ، وكان من اليسير عليه أن يدرك أن مثلها ما كان لها أن تجد استجابة من مصر .

* * *

جهز الملك سفارة رباعية جديدة من جيمس دي نورس ، وبطرس كامبن ، وجيمس الصغير وسير هيج وزاد على ذلك بأن أعلن في جميع أرجاء قبرص بجمع كل من يكون فيها من المسلمين « وإرسالهم إلى فاماجوستا أو أفقهسية بل ذهب أبعد من ذلك فأعلن أنه يحق لكل من تنصر[3] — وكان مسلماً — ولأهل الشام

---

(١) كان الوفد المملوكي بصحبة اثنين من الجنوية هما جيوفاني أمبرياتي ، وتبرو را كانلي ، راجع Iorga, op. cit. p. 350 d'après Machaut .

(٢) Makhairas : op. cit.,

(٣) يفسر النويري : الأعلام ، صفحة ٤٠٨ ، تنصر هؤلاء المسلمين بأنهم كانوا ممن أسرهم الملك في غارته على الإسكندرية « ففتنهم الفرنج في دينهم بالضرب الأليم والعذاب المهين فنهم من تنصر ، ومنهم من مات تحت العقوبة وما كفر ، وإلى هذا يشير شاعر الحادثة ابن أبي حجلة في قوله :

وكم قتلوا فيها كبيراً ونصروا صغيراً من الأسرى ولاسيما البكر
فيالك من هول عظيم وفتنة أضر على الإنسان من فتنة القبر

الموجودين بقبرص أن يذهبوا صحبة السفن القادمة إلى مصر ونادى فى بلاده « أن من كنتم مسلماً صغيراً أو كبيراً قتل »[1] وعهد بهؤلاء جميعاً إلى سير جيمس دى نورس .

وحدث إذ ذاك أن هاجم المسلمون قلعة « جوريجوس » فى أرمينيا ، فرأى القائد التريث وتوجيه بعض قواته لمحاربة بنى قرمان هناك ، وترامى إلى سمعه أيضاً ما حدث فى القاهرة من ثورة مماليك الأتابك يلبغا بن عبد الله العمرى الناصرى[2] عليه ، « فقد نفرت قلوبهم منه لكثرة ظلمه وعسفه وتنوعه فى العذاب لهم على أدنى جرم »[3] ونجحوا أخيراً فى قتله ، ويفسر ماخيراس[4] سر هذه الفتنة بأن يلبغا كان راغباً فى مصالحة الفرنجة والقبارصة ، وهو خطأ فى التفسير كما يخطىء فيما يذكره من إقامة أسندمر الناصرى[5] مكانه وإن كان يسميه « بحسن دمور » ، وتضطرب المصادر الغربية فى تتبع الأحداث ، فبينما هى تذكر توجيهه جيمس دى نورس لمحاربة بنى قرمان ، إذا بها تذكر تشوق الملك لسماع الأخبار من مصر ومدى قبول السلطان شعبان بن حسين لشروط الصلح التى ارتضاها سفراؤه أثناء وجودهم بالجزيرة ، ولكن يبدو لنا أن السفارة قد عادت إلى مصر التى علمت بحملته ضد بنى قرمان وتشككت فى صدق نوايا بطرس فى الموادعة ، فلم تجبه على رسالته فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ويزكى هذا الرأى عندنا موقف الجنوية حينذاك فقد خافوا العواقب المترتبة على تأخر الصلح بين الجانبين وأدركوا مقدار الضرر الذى سوف يحيق بمصالحهم التجارية فى مصر ، فأرسلوا إليها وفادة جنوية بقيادة أحد كبار تجارهم واسمه « بطرس دى كانيل » يلتمسون عقد الصلح بينهم وبين السلطان الذى رفض رجاءهم ورد عليهم بأنه « لا يعقد الصلح إلا مع ملك قبرص وأنه فى انتظار رسول من جانبه »[6] ، فلم يجد السفير الجنوى بداً من المضى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤/٣٢٣ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤/١٢١٨ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١/٣٦ ؛ ابن كثير : شرحه ١٤/٣٢٤ .

(٤) Makhairas : op. cit., I, No. 196.

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ١/٩٨٢ .

(٦) Makhairas : op. cit. I, No. 196.

إلى بطرس متوسلا إليه إنفاذ رسل السلطان صحبة سفير من عنده ، فاستجاب لهم الملك وبعث جيمس دى نورس مندوباً عنه وفى صحبته غرابان أحدهما لجنوة والآخر لأراجون . فلما جاء السفير القبرصى إلى مصر أمر السلطان بأخذه لمشاهدة معالم مصر والقاهرة . حتى إذا فرغ من ذلك كله تقدم « دى نورس » إلى السلطان يطلب موافقته على الاتفاقية التى أقرها سفراؤه من قبل . فأنكرها السلطان مما أحنق السفير القبرصى الذى خاطبه فى جرأة بلغت حد القحة فأثارت غضب شعبان حتى لقد هم بالفتك به لولا أن سكن خاطره أحد رجالاته [١] . وراح يلح عليه فى عقد الصلح مع قبرص حتى لانت عريكته واستجاب لإلحاحه ، وبعد فترة طالت حتى بلغت عشرين يوماً وافق الملك على شروط لا نعرف مفرداتها ؛ وإن قيل أن الكثيرين من كبار مماليكه كانوا غير راضين عنها . وليس فى المراجع العربية والغربية مايشير إلى فحوى هذه الشروط : غير أنه من الثابت أنه أرسل مع جيمس دى نورس سفيرين من قبله يقال إن أحدهما أسندمر الناصرى والآخر المترجم الجنوى الأصل . وبعث معهما بكثير من الهدايا والتحف . فبلغ الوفد قبرص يوم ١٤ يونيو ١٣٦٧ (= حوالى ١٣ شعبان ٧٦٨هـ) لكن الملك كان متغيباً وقتئذاك فى رودس . فلبثوا عشرة أيام رحلوا بعدها إليها . فاستبق الملك رسولى مصر بالسفينة وقابل جيمس دى نورس وغضب إذ رأى المسألة لا تعدو حد إرسال الرسل وأن الصلح لم يتم . وكان ظنه أنه قد أبرم واستتب السلم بين الجانبين . ورأى فى إرسال السلطان السفراء من جديد سخرية به .

أراد بطرس — كما يظهر — أن يبث فى روع مصر عدم اهتمامه بشأنها . فمضى يغير على بعض البلدان والثغور فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ومنها طرابلس [٢] ويصف ابن تغرى بردى [٣] قصد الفرنجة إياها تحت رايته فى مائة وثلاثين مركباً من الشوانى والقراقير والغربان والطرائد « وصحبتهم صاحب قبرص . وكان نائبها أكثر عسكرها غائبين عنها . فاغتنمت الفرنجة الفرصة وخرجوا من مراكبهم

---

(١) هو ناصر الدين بن قرايا مترجم السلطان ، وكان مسيحى الأصل جنويه ثم أسلم وكان اسمه قبل دخوله خدمة السلطان Luciano dell'Orto .

(٢) النويرى : الأعلام ، ص ٥١٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٣٦/١١ .

إلى الساحل . فخرج لهم من طرابلس بقية عسكرها بجماعة من المسلمين . فترامو بالنبال ثم اقتتلوا أشد قتال ، وتقهقر المسلمون ، ودخل المدينة طائفة من الفرنج فنهبوا بعض الأسواق . ثم إن المسلمين تلاحقوا وحصلت وقائع عدة استشهد فيها من المسلمين نحو أربعين نفراً ، وقتل من الأفرنج نحو الألف » ، ويتفق ابن تغرى بردى والنويرى[1] فى أن « الفرنج رجعوا خائبين » ، وأن الملك عاد إلى جريدته « خائباً مقهوراً » ، وكانت تلك الوقعة يوم ١٩ سبتمبر ١٣٦٧ (= ٢٣ صفر٧٦٩هـ) وتتفق المصادر العربية والغربية[2] فى وصف استبسال أهل طرابلس وكذلك فيما ارتكبه المغير من أعمال السرقة والنهب . وقد استغرقت هذه الحركة من بطرس فترة امتدت حتى الأسبوع الأول من أكتوبر حيث عاد إلى قبرص ، وربما كان السبب الذى حمله على العودة هو اقتراب عيد الميلاد ورغبة الفرنسيين الموجودين فى جيشه فى أن يكونوا بروما للاحتفال بهذه الذكرى الدينية . فلم يجد بداً من الرجوع حيث أمر بزج رسل السلطان فى الحبس . وأصدر بياناً دعى فيه كل راغب « فى نهب بلاد السلطان المصرى أن يمضى إلى فاما جوستا ، وأن يتزود لذلك بما شاء من السلاح والعدة » وكان هذا تخبطاً من الملك القبرصى .

* * *

على أن الجنوية والبنادقة رأوا مبلغ الضرر الذى حاق بهم وبتجاراتهم فى الشرق من جراء مسلك بطرس ، فبعثوا إلى البابا يشرحون له ماهم فيه من إرهاق والتمسوا منه أن يطلب من الملك القبرصى عقد الصلح صوناً لمصالحهم « وحفاظاً على أرواح المسيحيين فى أرض السلطان » فلم يجد البابا بداً من استدعاء بطرس (وكان إذ ذاك فى فلورنسة) وحثه على موادعة مصر . فأبدى استعداده لإجابة مطلبه . وكان للملك شروط حملها الرسل الإيطاليين إذ جعل لنفسه حق اختيار من يمثله من القبارصة فى مصر ، وله وحده حق خلعهم مما عهد إليهم . وأن يكون لهم الحكم فى جميع

---

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٥١٧ .

(٢) النويرى:الأعلام ص ٥١٧ النجوم الزاهرة ١١/٣٦ ، وانظر أيضاً :
Chroniques de quatres Valois, p. 186.

الجرائم والمنازعات التى تـكون بين القبارصة الذين لايجوز حبسهم إلا بعد مطالبة هؤلاء المندوبين بالأمر وموافقتهم عليه ، وأن يكون لهؤلاء المندوبين — فى بعض الأحيان — التقدم بطلب خفض الضرائب المستحقة على القبارصة إلى ما قد يصل إلى النصف . أما أتراك آسيا الصغرى فلا يسمح لهم بدخول أرض مصر إلا تجاراً وحينذاك يجب أخذ العهد عليهم بألا يهاجموا بلاد الملك فى أثناء رجوعهم من مصر ، وأن تطلق الحرية لجميع حجاج الأراضى المقدسة . وأخيراً فإن جميع المنازعات التى تنشب بين القبارصة وبين رعايا السلطان يجب أن تخضع لحكم رؤساء القبارصة وإلى قيمى الجنوية والبندقية فى الشرق(١) .

فبادر الجنوية والبنادقة فى الحال بحمل هذه الشروط وأرسلوها صحبة وفدين من قبلهما كان على رأس الأول «كاسان سيجالا» وعلى رأس الثانى « نيكولا جستنيانى » وأنفذ الملك إلى أخيه — وكان إذ ذاك نائبه فى قبرص أثناء غيبته عنها — يطلب إليه إطلاق سراح أسرى السلطان ، وأن يعهد بهم إلى مندوبى جنوة والبندقية لأخذهم الى القاهرة .

يلاحظ هذه المرة أن السلطان لم يرسل سفيراً أوسفراء من قبله ولـكنه وكل إمضاء الاتفاقية الى «السفيرين الجنوى والبندقى براً بوعدهما الذىقطعاه فى حضرة البابا المعظم»(٢) فى أن يعملا جهدهما على حمل مصر على الاستجابة لحقن الدماء وإنهاء العداوة والحرب الباردة ، وما كان لأخيه الأمير إلا أن يؤمر فيجيب ، على أنه يظهر أن الجنوية والبنادقة اتفقوا فيما بينهم على استبقاء الرسل المصريين حيث هم — وإن كانوا مطلقى السراح حتى يروا ما يتم بشأن الوفادة التى نهضوا من أجلها ، وأخذوا على عاتقهم تحقيق الغاية التى ينشدها الملك ويطمعون فيها لضمان انتظام تجارتهم ، ومن ثم رحلوا وحدهم يوم ٢٥ يونيو ١٣٦٨ (٧ ذو القعدة ٧٦٩ هـ) — أى بعد عام من رجوع سفارة جيمس دى نورس — فلما بلغوا القاهرة أفضوا إلى السلطان بما جاءوا من أجله « ووصلوا معــه إلى اتفاق وأرسلوا إلى قبرص لإرجاع رسله »(٣) ، وقام

---

(١) Cf. Iorga : op. cit., p. 375.

(٢) Makhairas : op. cit., I, No. 223.

(٣) Makhairas : op. cit., I, No. 224.

السلطان من جانبه بإطلاق سراح كثير من المسيحيين ورد أملاكهم عليهم ، ولكنه أخر القسم « حتى يتم الصلح »[١] ، وحينذاك قامت سفينتان : جنوية وبندقية بالإبحار الى جمهوريتهما للتوسط فى إحضار السفراء المصريين المعوقين بقبرص ، فنهض الحاكمان بنفسيهما لأداء هذه المهمة مما يدل على خطورة المهمة هذه المرة وعلى أن الجانب الفرنجى كان شديد الثقة فى أن تكلل مساعى الجمهوريتين الحميدة بالتوفيق واستكتبهما أخو الملك فى قبرص أمام الموثق الرسمى استلامهما « السفراء سالمين » فرحلا بهم يوم ٢٤ أغسطس (٩ محرم ٧٧٠ هـ .) من فاماجوستا إلى ثغر الإسكندرية حتى إذا بلغاها أرسلا يعرفان كاسان سيجالا ، ونيكولا جستنيانى بخبر قدومهم ، فطلب السلطان إنزال سفرائه إلى الميناء ، إلا أن كاسان سيجالا قال له : « مولاى ، أن أوامر ملك قبرص تقضى ألا ننزل رسلنا حتى تعقد الصلح ويتم إطلاق من فى سجونك من النصارى حتى لا تغير رأيك كما حدث من قبل »[٢] فغضب السلطان غضباً شديداً وكبر عليه أن يكون عمله وقوله موضع شك ، كما عظم عليه أن يحدثه «هذا العلج الخنزير» بمثل هذا الأسلوب دون مراعاة لمقامه ، وقام منكلى بغا الشمسى فصفع كاسان على وجهه وسبه وجذبه من لحيته واتهمه بغش السلطان والسخرية به ، فأنكر كاسان هذا القول ، ويصف لنا ماخيراس[٣] — ولكن فى اضطراب فى ذكر الأحداث — ما جرى إذ ذاك من وجود فريقين أحدهما يشجع السلطان على اتخاذ موقف صلب إزاء هذه السفارة وثانيهما يحاول تهدئته ومعالجة الموقف فى شيء من الهدوء . وتردد السلطان بين الاستجابة والرفض وأخيراً عفا عن السفير الجنوى ورده إلى قبرص حيث عاد باثنين من الرقيق المسلم هما « آخر من بقى من المسلمين بها » وأرسل بطرس معهم خطاباً إلى السلطان وردت ترجمته فى ماخيراس[٤] جاء فيه « إلى صديقنا العزيز سلطان مصر : يبعث إليكم صديقك ملك قبرص تحياته . وأحب أن تعلم أنى تألمت منك أشد الألم . . . فقد طلبت الصلح واستجبت له بناء على التماس الجنوية والبنادقة والكتلان ، إذ ألحوا على من أجله ، فلما جاءتك

---

(١) Op. cit., loc. cit.

(٢) Op. cit., loc. cit.

(٣) Ibid., I, Nos. 225-226.

(٤) Ibid., I, No. 230.

رسلى ضرب البعض منهم فى حضرتك ، وحاولت قتل الآخرين ، فاحتملت هذا كله ؛ وإنك لتطلب السلم لحظة ثم يبدو لك أن تنصرف عنه وتماطل فيه ... وأقسم لك كمسيحى أن حكام الغرب قد أصدروا أوامرهم لعسكرهم بالتأهب لحملة ضخمة لمهاجمتك . غير أن البنادقة خدعونى فأفهمت الحكام أن السلم قد استتب بينى وبينك فقعدوا بعد النهوض وآمنت بما قلته كملك فأطلقت سراح الأسرى المسلمين وبعثتهم إليكم بينما لا تزال أنت مستبقياً النصارى فى حبسك » ثم أخذ يتهدده وأخبره أنه لن يخط إليه بعد ذلك حرفاً . وواضح من هذا الكتاب — إن صدق وروده على هذه الصورة — أن الملك يهدد من طرف خفى بتعويق تجارة مصر نظراً لاشتراك البنادقة والجنوية والكتلان معه فى إحساسه وإن كان يلقى باللائمة على البنادقة فى أنهم — بما نقلوه إليه من رغبة السلطان الصلح — قد خدعوه إذ ثنى الغرب عن إنفاده حملة ضد مصر ، ولكنه يهدده فى الوقت ذاته بأن الغرب لا زال مستعداً لمحاربته إن لم يف بما وعد ، وأنه لمن المؤسف أن المراجع العربية تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى مثل هذا الخطاب ، بل وإلى الأحداث التى جرت فى تلك الفترة بالذات .

على أن الأحداث فى قبرص عوقت الملك فقد تحركت نفوس أمرائه ضده ، وراحوا يتهمونه بكل موبقة ، بل إن زوجته ذاتها كرهت منه أسلوبه فى خطاياه ، فاتفقت الآراء على اتخاذ خطوة فعالة ، كان أيسرها شكواه إلى البابا ، وبلغ التذمر منه غايته حتى تآمروا على قتله فاغتالوه ، وكان ممن اغتاله أخواه ، وأجلسوا على العرش ابنه الصبي بطرس الثانى وجعلوا أخاه وصياً عليه ، وكان من أشد من حزن على قتله فيليب دى ميزيير الذى جعل « خبزه دمعه Panem Lacrimarum » ، والظاهر أن الوصى أراد أن يجعل من وصايته عهداً بالسير على خطة المقتول من حيث معاداة مصر ، فبعث بواحد من رجال الأسطول اسمه « جان دى مورف » فى أربع سفن حربية إلى الثغر السكندرى لكن المسئولين بها لم يسمحوا له بالدخول ، فلم يكن منه إلا أن وثب على مركب لجماعة من المغاربة ثم راح يهاجم صيداء وبيروت وجبلة واللاذقية ، ثم عاد إلى فاماجوستا يوم ٢٢ يوليو ١٣٦٩ (١٦ ذو الحجة ٧٧٠ هـ) ، وكان لهذا الهجوم المباغت أثره فى تقوية الروح المعنوية فى الغرب فأخذ يحشد قواته من المغامرين وأصحاب المطامع الشخصية لضرب القوة الإسلامية فى مصر ، وضاقت

البندقية ذرعاً بمسلك السلطان فى عدم رضائه بالصلح ، فنهضت هى هذه المرة ودعت جنوة لإرسال مندوبين عنهما إلى البابا الذى جاءته وفادة من الجمهوريتين التجاريتين وهونى مدينة «فيتيرب» واتفق الجميع حينذاك على عدم المتاجرة مع مصر المملوكية ، وتأكد هذا فى اتفاقية عقدت يوم ٢٨ يوليو تعهد فيها كل من البنادقة والجنوية بإرسال بعض السفن والأغربة إلى رودس للاتفاق مع جماعة الاسبتارية — المرحبين بكل دعوة لقتال مصر — ومع القائم بالوصايا على الملك القبرصى ، واتفقوا على إرسال قوة إلى مصر تطلب من سلطانها إعادة جميع من فى أسره من الفرنجة فإن أبى ذلك عليهم هددوه بقطع الطريق على جميع السفن القاصدة الإسكندرية ، مسيحية أم إسلامية ، وكان معنى هذا الحصار الاقتصادى وما يتبعه من ضعف قوة مصر وركوعها أمام الغرب .

وإذا كان ماخيراس هو المصدر لهذه الأخبار فقد أورد ماجرى من هذه الجماعة من مجيئها وإرسالها رسالة إلى السلطان ، قذفته إليه بسهم تهدده فيه بالحرب إن لم يستجب لداعى العقل والصالح العام ، وختمته بقولها « إنك مملوك من أصل وضيع » [(١)] ، ويذهب ماخيراس إلى أن السلطان خاف هو وأمراؤه فأطلق سراح اثنين من تجار النصارى وأرسلهما إلى الوصى بقبرص بكتاب يعتب فيه على مسلك الذين جاءوا من قبله ، فعده القوم تحولا طيباً وخطوة إيجابية فى سبيل الصلح ، ورحب الوصى بهذه الفرصة إذ رأى فيها تثبيتاً لمكانته فى عيون الأهالى وتجار الغرب ، ومنع السفن من المضى إلى الساحل الشمالى بقصد نهبه ، وأخذ السلطان يترقب عودة التاجرين اللذين فك قيدهما ، فأرسل اثنين آخرين أحدهما جنوى والآخر بندقى [(٢)] ، فاطمأنت قلوب تجار قبرص ، ورحبت جنوة والبندقية بهذه الخطوة الجديدة من جانب السلطان وأرسلتا إلى البابا والدوج للسكون ، وسارت الأمور كما يشتهى جميع الأطراف ، وخرجت ثمانى سفن ، واحدة عليها التجار و لأربعة الذين بعثهم السلطان من قبل ، واثنان جنويان وعليهما وولتر داريا ، ومثلهما بندقيان وعليهما بطرس جستنيانى واثنان اسبتاريان وعليهما الأخ دى فيرن وغرابان قبرصيان عليهما سيتفن فاردن وجون بدوان

---

(١) Dawkins, op. cit., No. 294, note I, d'après Bustron.

(٢) Cf. Iorga : Philippe de Mezières, p. 401.

الـكبير ، كما أرسلوا مع هذه السفن التجار المسيحيين الأربعة الذين كان السلطان قد بعث بهم من قبل على دفعتين ، وأرسل الوصى كتاباً رقيق اللهجة إلى السلطان يؤكد له فيه أن كل ما يبرمه رسوله جون بدوان مقبول لديه وغير مراجع فيه ، وبلغت هذه السفن الإسكندرية يوم ٦ أغسطس ١٣٧٠ (= ١٢ المحرم ٧٧٢هـ) على قول ويوم ٨ أغسطس على قول آخر(١)، وبعد لأى استجاب السلطان للصلح وأقسم على القرآن باحترامه كما أقسم الآخرون على الإنجيل ، وأرسل بعض كبار أمرائه إلى قبرص حيث رحب بهم الوصى ودعى الملك الشاب للقائهم ، وأقسم الجميع كل على كتابه المقدس ، وبذلك ختمت صفحة من النزاع الذى بدأه بطرس اللونيانى ليعود فى القرن التالى ويستكمل باحتلال مصر لقبرص .

حسن حبشى

(١) Makhairas, op. cit., No. 303 ; Dawkins, op. cit., II, 303, note 2. d'après Strambaldi.